الباب الثانى
الحكومة والاسلام

الباب الاول
نظام الحكم فى عصر النبوة

قضاؤه (صلعم) — هل ولى (صلعم) قضاة ؟ — قضاء عمر — قضاء على — قضاء معاذ وأبى موسى — صعوبة البحث عن نظام القضاء فى عصر النبوة — خلو العصر النبوى من مخايل الملك — أهمال عامة المؤرخين البحث فى نظام الحكم النبوى — هل كان (صلعم) ملكا ؟

(١) لا حاجة بنا إذ كنا نبحث عن تاريخ القضاء زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، ان حال القضاء فى ذلك الوقت لا يخلو من غموض وإبهام يصعب معهما البحث ، ولا يكاد يتيسر معهما الوصول الى رأى ناضج ، يقره العلم ، وتطيب به نفس الباحث .

لا شك فى ان القضاء بمعنى الحكم فى المنازعات وفضها ، كان موجوداً فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، كما كان موجوداً عند العرب وغيرهم ، قبل أن يجىء الاسلام . وقد رفعت الى النبى صلى الله عليه وسلم خصومات فقضى فيها . وقال صلى الله عليه وسلم ، [1] أنكم تختصمون

(١) البخارى فى كتاب الشهادات ص ١٧٠ ج ٣

اليّ ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق اخيه شيئاً بقوله ، فانما أقطع له قطعة من النار ، فلا يأخذها »

وفى التاريخ الصحيح شيء من قضآئه عليه السلام فيما كان يرفع اليه ، ولكنا اذا اردنا ان نستنبط شيئاً من نظامه صلى الله عليه وسلم فى القضآء نجد أن استنباط شيء من ذلك غير يسير ، بل غير ممكن ، لان الذى نقل الينا من احاديث القضاء النبوى لا يبلغ أن يعطيك صورة بينة لذلك القضآء ولا لما كان له من نظام ، ان كان له نظام .

(٢) لاحظنا ان حال القضآء زمن النبي صلى الله عليه وسلم غامضة ومبهمة من كل جانب ، حتى لم يكن من السهل على الباحث ان يعرف هل ولى صلى الله عليه وسلم احدا غيره القضاء أم لا .

هنالك ثلاثة من الصحابة يعدهم جمهور العلماء ممن ولي القضآء فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال بعضهم [1] « وقد قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم القضاء لعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم » اه وينبغى أن يضاف اليهم أبو موسى الاشعري رضي الله عنه ، فقد كان فى عمله ، على ما يظهر ، نظيراً لمعاذ بن جبل سواء بسواء

(٣) اما أن عمر رضي الله عنه تقلد القضآء فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، فرواية غريبة من الجهة التاريخية ، ويظهر انها انما اخذت بطريق الاستنتاج ، [2] ففى سنن الترمذي ، أن عثمان قال لعبد الله بن عمر

---

(١) هو رفاعة بك رافع فى كتابه نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ص ٤٢٩ نقلا عن كتاب تخريج الدلالات السمعية (٢) نهاية الايجاز ص ٤٢٩

اذهب فاقض بين الناس . قال أو تعافيني يا أمير المؤمنين ؟ قال وما تكره من ذلك وقد كان أبوك يقضي ؟ قال ان أبي كان يقضي فإن أشكل عليه شيء سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل . وإني لا أجد من أسأله الخ » .

(٤) وأما علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى اليمن ، وهو شاب ، ليقضي بينهم ... وروى أبو داود ، رحمه الله تعالى ، عن علي بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنه ، وقال بعثني رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى اليمن قاضياً ، وأنا حديث السن ، ولا علم لي بالقضاء ، وقال ان الله سيهدي قلبك ، ويثبت لسانك ، فاذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر ، كما سمعت من الأول ، فانه أحرى أن يتبين لك القضاء . قال فما زلت قاضياً ، وما شككت في قضاء بعد . كذا ذكره أبو عمرو بن عبد البر في الاستيعاب . وقال أيضاً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في اصحابه ، « أقضاهم علي بن ابي طالب » . اهـ

والذي في البخاري[1] مما يتصل بهذا الموضوع ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث خالد بن الوليد الى اليمن قبل حجة الوداع ، مع جماعة من الصحابة ، وبعث علياً بعد ذلك مكانه ليقبض الخمس ، وقدم علي من اليمن بسعايته الى مكة ، والنبي صلى الله عليه وسلم بها .

---

(١) راجع الجزء الخامس ص١٦٣ — ١٦٤ بعث علي بن ابي طالب عليه السلام وخالد ابن الوليد رضي الله عنه الى اليمن قبل حجة الوداع — صحيح البخاري

ونقل على بن برهان الدين الحلبي [١] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث علياً كرم الله وجهه ، فى سرية الى اليمن ، فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، فكتب بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى كتابه خر ساجداً ، ثم جلس ، فقال السلام على همدان . وتتابع أهل اليمن الى الاسلام . وهذه هى السرية الاولى . والسرية الثانية بعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ، كرم الله وجهه الى بلاد مذحج من أرض اليمن فى ثلثمائة فارس ، فغزاهم . . . وجمع الغنائم . . . ثم رجع على كرم الله وجهه ، فوافى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، قدمها لحجة الوداع . الخ

(٥) « وأما معاذ [٢] بن جبل ، فقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضياً الى الجَنَد من اليمن ، يعلم الناس القرآن ، وشرائع الاسلام ، ويقضى بينهم ، وجعل له قبض الصدقات من العمال ، الذين باليمن ، وذلك عام فتح مكة ، فى السنة الثامنة من الهجرة . والجند بفتح الجيم والنون معاً ، بلدة باليمن »

وقال البخارى [٣] في هذا الموضوع بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل الى اليمن ، قال وبعث كل واحد منهما على مخلاف ، واليمن مخلافان ، ثم قال ، يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا

وفى حديث آخر للبخارى ، أنه قال لمعاذ بن جبل ، انك ستأتى

---

(١) راجع السيرة الحلبية . ج ٣ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ (٢) نهاية الايجاز

(٣) صحيح البخارى ج ٥ ص ١٦١ — ١٦٣

قوما من أهل الكتاب ، فاذا جئتهم فادعهم الى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال فان هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فان هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم أطاعوا لك بذلك فاياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينه وبين الله حجاب

ويقرب من هذا رواية السيد احمد زينى دحلان فى السيرة النبوية (١) قال « بعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الاشعرى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما الى اليمن قبل حجة الوداع ، فى السنة العاشرة ، وقيل فى التاسعة ... وقيل عام الفتح سنة ثمان ، وكل واحد منهما على مخلاف ، وكان جهة معاذ العليا صوب عدن ، وكان من عمله الجند . وكانت جهة أبى موسى السفلى اه .

وأخرج (٢) أحمد وابو داود والترمذى وغيرهم ، من حديث الحارس ابن عمرو ، بن أخى المغيرة بن شعبة ، قال حدثنا ناس من أصحاب معاذ عن معاذ ، قال لما بعثه النبى صلى الله عليه وسلم الى اليمن قال كيف تقضي اذا عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بكتاب الله ، قال فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله ، قال فان لم تجد فى سنة رسول الله ولا فى

---

(١) المطبوعة على هامش السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨

(٢) منقول من « كتاب ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول » للشوكانى ص ١٨٨ وقال المؤلف « محمد بن على بن محمد الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ » عن هذا الحديث . ان الكلام فى اسناده يطول . وقد قيل انه مما تلقى بالقبول

كتاب الله ؟ قال أجتهد رأيي ولا آلو . قال فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ، وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله اهـ .

(٦) تلك الروايات المختلفة ، التى قصصنا عليك نموذجاً منها ، تريك كيف يسوغ لنا أن نستنتج ما قلناه لك قبل ؛ من أنه لا تتيسر الاحاطة بشيء كثير من أحوال القضاء فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وها أنت ذا قد رأيت كيف اختلفت الرواية عن حادثة واحدة بعينها . فبعث على الى اليمن يرويه أحدهم انه تولية للقضاء ، ويروى الآخر انه كان لقبض الخمس من الزكاة ، ومعاذ بن جبل كذلك ، ذهب الى اليمن قاضياً فى رأى ، وغازيا فى رأى ، ومعلما فى رأى

ونقل صاحب السيرة النبوية [1] خلافاً فى أن معاذا كان واليا أو قاضيا « فقال ابن عبد البر إنه كان قاضيا ، وقال الغساني إنه كان أميراً على المال . وحديث ابن ميمون فيه التصريح بأنه كان أميراً على الصلاة . وهذا يرجح أنه كان والياً » اهـ

(٧) وأن البحث العميق فيما كان عليه القضاء زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، إطاعة التفكير فى ذلك ، وحسن التفهم لما وصل الينا متصلا بهذا الموضوع من الاحاديث والاخبار ، كل أولئك يدفعنا إلى البحث بوجه عام فى نظام الحكومة الاسلامية ، أيام النبى صلى الله وسلم ، وفى كيفية تدبير ذلك الملك الاسلامى ، إن ساغ لنا بحق أن نسمى ما فتح الله لنبيه من البلاد دولة وملكا .

---

(١) راجع السيرة النبوية لدحلان المطبوعة على هامش السيرة الحلبية ص ٣٦٨ ج ٢

ذلك باننا وجدنا عند البحث فى نظام القضاء فى عصر النبوة أن غير القضاء أيضاً من أعمال الحكومات ووظائفها الاساسية لم يكن فى ايام الرسالة موجوداً على وجه واضح لا لبس فيه ، حتى يستطيع باحث منصف أن يذهب الى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعين فى البلاد التى فتحها الله له ولاة مثلا لادارة شؤونها ، وتدبير أحوالها وضبط الامر فيها . وما يروى من ذلك فكله عبارة عن توليته اميراً على الجيش ، أو عاملا على المال ، أو إماماً للصلاة ، أو معلما للقرآن ، أو داعيا الى كلمة الاسلام . ولم يكن شىء من ذلك مطرداً ، وانما كان يحصل لوقت محدود ، كما ترى فيمن كان يستعملهم صلى الله عليه وسلم على البعوث والسرايا ، أو يستخلفهم على المدينة اذا خرج للغزو

اذا نحن تجاوزنا عمل القضاء والولاية الى غيرهما من الاعمال ، التى لا يكمل معنى الدولة الا بها ، كالعمالات التى تتصل بالاموال ومصارفها (المالية) وحراسة الانفس والاموال (البوليس) وغير ذلك مما لا يقوم بدونه أقل الحكومات وأعرقها فى البساطة ، فمن المؤكد اننا لا نجد فيما وصل الينا من ذلك عن زمن الرسالة شيئا واضحا يمكننا ونحن مقتنعون ومطمئنون ، أن نقول انه كان نظام الحكومة النبوية

(٨) ومما قد يستأنس به فى هذا الموضوع ، أننا لاحظنا أن عامة المؤلفين ، من رواة الاخبار يعنون فى الغالب ، اذا ترجموا الخليفة من الخلفاء أو ملك من الملوك ، بذكر عماله من ولاة وقواد وقضاة الخ ويفردون له بحثا خاصا ، يدل على انهم عرفوا تماما قيمة ذلك البحث من

الجهة العلمية، فصرفوا من الجهد فيه والعناية به ما يناسبه، ولكنهم فى تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم ، إن عالجوا ذلك البحث رأيتهم يزجون الحديث فيه مبعثرا غير متسق ، ويخوضون غمار ذلك البحث على نسق لا يماثل طريقتهم فى بحث بقية العصور . ما رأينا مؤرخاً شذ عن ذلك ، اللهم الا ما سننقله لك بعد عن رفاعة [1] بك رافع الطهطاوى ، في كتاب نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ، نقلا عن صاحب كتاب تخريج الدلالات السمعية

(٩) كلما أمعنا تفكيراً فى حال القضاء زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى حال غير القضاء أيضا ، من اعمال الحكم ، وأنواع الولاية ، وجدنا ابهاما فى البحث يتزايد، وخفاء فى الامر يشتد . ثم لا تزال حيرة الفكر تنقلنا من لبس الى لبس ، وتردنا من بحث الى بحث ، الى أن ينتهي النظر بنا الى غاية ذلك المجال المشتبه الحائر . واذا نحن إزاء عويصة أخرى هى كبرى تلكم المعضلات ، وهي منشأ ما لقينا من حيرة واضطراب. هي الاصل وما عداها فروع ، وهي الأم وما عداها تبع

تلك مشكلة إذا وفق العقل لحلها فقد هانت من بعدها المشاكل ، وانجلى كل لبس وابهام

أننا لنقترب بك الى هذه المشكلة ونحن نقدم رجلا ونؤخر أخرى، أما اوّلا فلانّ حلها عسير ، ومزالق الفكر فيها كثيرة . وما لم يكن عون من الله تعالى أيّ عون فلا أمل فى الوصول إلى وجه الصواب فيها

---

(١) رفاعة بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع ، ويتصل نسبه بمحمد الباقر بن على زين العابدين توفى سنة ١٢٩٠ هـ ـ من كتاب اكتفاء القنوع

وأما ثانياً فلان المغامرة فى بحث هذا الموضوع قد تكون مثاراً لغارة يشب نارها أولئك الذين لا يعرفون الدين الا صورة جامدة ، ليس للعقل ان يحوم حولها ، ولا للرأي أن يتناولها :

ولكنا نستعين بالله تعالى ، ونرجو منه جل شأنه حسن التوفيق، عسى أن نكشف لك ما غمض ، ونفتح عليك ما استغلق ، ونصل بك الى الحق أبلج الوجه ، واضح الغرة ، ان شاء الله .

فاعلم أن المسألة الآن هى ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان صاحب دولة سياسية ورئيس حكومة كما كان رسول دعوة دينية وزعيم وحدة دينية أم لا ؟

الباب الثانى

الرسالة والحكم

لا حرج فى البحث عما اذا كان « صلعم » ملكا أم لا — الرسالة شىء والملك شىء آخر — القول بأنه « صلعم » كان ملكا أيضاً — بعضهم العلماء يشرح بالتفصيل الدقيق نظام حكومة النبى « صلعم » — بعضهم يابى أن يكون من مظاهر الدولة زمن النبى « صلعم » — الجهاد — الأعمال الأخرى — أسراء قبيل ان النبى « صلعم » استعملهم على البلاد — هل كان تأسيس النبى لدولة . يابى جزءاً من رسالته ؟ — الرسالة والتنفيذ — ابن خلدون يرى أن الاسلام شرع تبليغى وتنفيذى — اعتراض على ذلك الرأى — القول بأن الحكم النبوى جمع كل دقائق الحكومة — احتمال جهلنا بنظام الحكومة النبوية — مناقشة ذلك الوجه — احتمال أن تكون ابساطة الفطرية هى نظام الحكم النبوى — بساطة هذا الدين — مناقشة ذلك الرأى :

« ١ » لا يهولنك البحث فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ملكا أم لا ، ولا تحسبن أن ذلك البحث ذو خطر فى الدين قد يخشى شره على ايمان الباحث ، فالأمر ، ان فطنت اليه ، أهون من أن يخرج مؤمناً من حظيرة الايمان ، بل وأهون من أن يزحزح المتقى عن حظيرة التقوي

وانما قد يبدو لك الأمر خطيراً لانه يتصل بمقام النبوة ، ويرتبط بمركز الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه على ذلك لا يمس فى الحقيقة

شيئاً من جوهر الدين ، ولا أركان الاسلام . وربما كان ذلك البحث جديداً فى الاسلام لم يتناوله المسلمون من قبل على وجه صريح ولم يستقر للعلماء فيه رأى واضح ، واذاً فليس بدعاً فى الدين ، ولا شذوذاً عن مذاهب المسلمين ، أن يذهب باحث الى ان النبي عليه السلام كان رسولا وملكا ، وليس بدعاً ولا شذوذاً أن يخالف فى ذلك مخالف ، فذلك بحث خارج عن دائرة العقائد الدينية التى تعارف العلماء بحثها ، واستقر لهم فيها مذهب ، وهو أدخل فى باب البحث العلمى منه فى باب الدين فأقدم ولا تخف ، إنك من الآمنين

(٢) أنت تعلم أن الرسالة غير الملك ، وأنه ليس بينهما شيء من التلازم بوجه من الوجوه ، وأن الرسالة مقام والملك مقام آخر ، فكم من ملك ليس نبياً ولا رسولا ، وكم لله جل شأنه من رسل لم يكونوا ملوكا . بل ان اكثر من عرفنا من الرسل انما كانوا رسلا فحسب

ولقد كان عيسى بن مريم عليه السلام رسول الدعوة المسيحية ، وزعيم المسيحيين ، وكان مع هذا يدعو الى الاذعان لقيصر ، ويؤمن بسلطانه . وهو الذى أرسل بين أتباعه تلك الكلمة البالغة [1] « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله »

وكان يوسف بن يعقوب عليه السلام ، عاملا من العمال ، فى دولة الريان بن الوليد ، فرعون مصر . ومن بعده كان عاملا لقابوس بن مصعب [2]

---

(١) انجيل متى من الاصحاح الثانى والعشرين آية « ٢١ »

(٢) راجع تاريخ أبى الفداء ج ١ ص ١٨

ولا نعرف فى تاريخ الرسل من جمع الله له بين الرسالة والملك » إلا قليلا

فهل كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ممن جمع الله له بين الرسالة والملك ، أم كان رسولا غير ملك ؟

(٣) لا نعرف لاحد من العلماء رأيا صريحاً فى ذلك البحث ولا نجد من تعرض للكلام فيه ، بحسب ما أتيح لنا . ولكنا قد نستطيع بطريق الاستنتاج أن نقول : إن المسلم العامى يجنح غالباً الى اعتقاد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ملكا رسولا ، وأنه أسس بالاسلام دولة سياسية مدنية ، كان هو ملكها وسيدها . لعل ذلك هو الرأى الذى يتلاءم مع ذوق المسلمين العام ، ومع ما يتبادر من أحوالهم فى الجملة ، ولعله أيضا هو رأى جمهور العلماء من المسلمين ، فانك تراهم ، اذا عرض لهم الكلام فى شىء يتصل بذلك الموضوع ، يميلون الى اعتبار الاسلام وحدة سياسية ، ودولة أسسها النبى صلى الله عليه وسلم

وكلام ابن خلدون فى مقدمته ينحو ذلك المنحى ، فقد جعل الخلافة التى هى نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا ، شاملة للملك والملك مندرجاً تحتها الخ [1]

(٤) وقد نقل المرحوم رفاعة بك رافع عن كتاب تخريج الدلالات السمعية ما يشبه أن يكون صريحاً فى ذلك الرأى ، بل الواقع انه صريح ،

---

(١) راجع المقدمة : فصل فى الخطط الدينية الخلافية ص ٢٠٦ وغيره

قال ما ملخصه [١] « ان من لم ترسخ فى المعارف قدمه ، وليس لديه من أدوات الطالب إلا يداه وقلمه ، يحسب كثيراً من الاعمال السلطانية مبتدعاً لا متبعاً ، وأن العامل على خطة دنيوية ، ليس عاملا فى عمالة سنية ، ويظن أن عمالته دنية . فلهذا جمعت ما علمته من تلك العمالات فى كتاب يوضح نشرها ، ويبين الأمر لمن جهل أمرها ، فذكرت فى كل عمالة من ولاه عليها الرسول من الصحابة ، ليعلم ذلك من يليها الآن ، فيشكر الله على أن استعمله فى عمل شرعى ، كان يتولاه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلح له ، وأقامه المولى فى ذلك مقامه » اه

ثم لخص رفاعة بك الكلام فى الوظائف والعمالات البلدية ، خصوصية وعمومية ، أهلية داخلية وجهادية التى هي عبارة عن نظام السلطنة الاسلامية وما يتعلق بها من الحرف والصنائع ، والعمالات الشرعية ، على ما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمع فى ذلك بين الكلام على خدمه الخاصة به صلى الله عليه وسلم ، وما يضاف الى الامانة العظمى من الاعمال الاولية كالوزارة والحجابة وولاية البُدْن [٢] والسقاية [٣] والكتابة وما يضاف الى العمالات الفقهية من معلم القرآن ومعلم الكتابة ومعلم الفقه ، والمفتى وامام الصلاة والمؤذن ...، ثم ذكر التراجمة وكتابة الجيش والعطاء والديوان والزمام ، وبين أن للديوان أصلا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر العمالات المتعلقة بالاحكام ، كالامارة العامة على

---

(١) نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ص ٣٥٠ طبع بمطبعة المعارف الملكية تحت نظارة قلم الروضة والمطبوعات سنة ١٢٩١ هـ (٢) البدن واحدتها بدنة وهي ناقة أو بقرة تنحر بمكة اهـ منه
(٣) سقاية الحاج

النواحى، والقضاء وما يتعلق به من اشهاد الشهود وكتابة الشروط والعقود والمواريث والنفقات ، والقسام وناظر البناء للتحديد ، وذكر المحتسب والمناذى ، ومتولى حراسة المدينة ، والجاسوس لاهل المدينة ، والسجان ومقيمى الحدود ، ثم ذهب يعدد الاعمال الحكومية واحداً بعد واحد ، حتى لم يكد يدع شيئاً ، وحتى قال رفاعة بك : ان ذلك شىء لم يف به غالب مؤلفى كتب السير بل جميعهم

(٥) لا شك فى أن الحكومة النبوية كان فيها بعض ما يشبه أن يكون من مظاهر الحكومة السياسية وآثار السلطنة والملك

(٦) أول ما يخطر بالبال مثالا من أمثلة الشؤون الملكية ، التى ظهرت أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، مسألة الجهاد ، فقد غزا صلى الله عليه وسلم المخالفين لدينه من قومه العرب ، وفتح بلادهم ، وغنم اموالهم ، وسبى رجالهم ونساءهم . ولا شك فى انه صلى الله عليه وسلم قد امتد بصره الى ما وراء جزيرة العرب ، واستعد للانسياب بجيشه فى اقطار الارض ، وبدأ [1] فعلا يصارع دولة الرومان فى الغرب ، ويدعو الى الانقياد لدينه كسرى الفرس فى الشرق ، ونجاشى الحبشة ومقوقس مصر الخ

وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة الى الدين ، ولا لحمل الناس على الايمان بالله ورسوله ، وانما يكون الجهاد لتثبيت السلطان ، وتوسيع الملك

دعوة الدين دعوة الى الله تعالى ، وقوام تلك الدعوة لا يكون

(١) اشارة الى غزوة مؤتة وسرية أسامة بن زيد الى أبنى

الا البيان، وتحريك القلوب بوسائل التأثير والاقناع فأما القوة والاكراه فلا يناسبان دعوة يكون الغرض منها هداية القلوب ، وتطهير العقائد وماعرفنا فى تاريخ الرسل رجلا حمل الناس على الايمان بالله بحد السيف ، ولا غزا قوماً فى سبيل الاقناع بدينه ، وذلك هو نفس المبدأ الذى يقرره النبى صلى الله عليه وسلم فيما كان يبلغ من كتاب الله

قال تعالى [١] « لا إكراهَ فى الدِّينِ ، قد تبيّنَ الرُّشْدُ من الغي » وقال: [٢] « أُدعُ إلى سبيلِ ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسَنةِ ، وجادلهم بالتي هى أحسَنُ » وقال: « [٣] فذكر إنما أنت مذكِّرٌ ، لست عليهم بمُصَيطر » ، « [٤] فإن حاجُّوك فقل أسلمتُ وجهيَ لله ومن اتبعن ، وقل للذين أُوتُوا الكتابَ والأميينَ أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدَوا ، وإن تولَّوْا فانما عليك البلاغُ ، والله بصير بالعباد » « [٥] أفأنت تُكْرِهُ الناس حتى يكونُوا مُؤْمنين »

تلك مبادئ صريحة فى أن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، كرسالة إخوانه من قبل ، انما تعتمد على الاقناع والوعظ ، وما كان لها أن تعتمد على القوة والبطش ، واذا كان صلى الله عليه وسلم قد لجأ الى القوة والرهبة ، فذلك لا يكون فى سبيل الدعوة الى الدين ، وابلاغ رسالته الى العالمين ، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان في سبيل الملك ، ولتكوين الحكومة الاسلامية . ولا تقوم حكومة إلا على السيف ، وبحكم القهر والغلبة ، فذلك عندهم هو سر الجهاد النبوى ومعناه .

---

(١) سورة البقرة (٢) سورة النحل (٣) سورة الغاشية (٤) سورة آل عمران (٥) سورة يونس

(٧) قلنا ان الجهاد كان آية من آيات الدولة الاسلامية ، ومثالا من أمثلة الشئون الملكية ، وإليك مثلا آخر ، :

كان فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم عمل كبير متعلق بالشئون المالية ، من حيث الايرادات والمصروفات ، ومن حيث جمع المال من جهاته العديدة ، « الزكاة والجزية والغنائم الخ » ومن حيث توزيع ذلك كله بين مصارفه ، وكان له صلى الله عليه وسلم سعاة وجباة ، يتولون ذلك له ، ولا شك أن تدبير المال عمل ملكى ، بل هو أهم مقومات الحكومات ، على أنه خارج عن وظيفة الرسالة من حيث هى ، وبعيد عن عمل الرسل باعتبارهم رسلا فحسب

(٨) وقد يكون من أقوى الأمثلة فى هذا الباب ما روى الطبري باسناده ، ان النبي صلى الله عليه وسلم وجه إمارة اليمن وفرقها بين رجاله، وأفرد كل رجل بحيزه واستعمل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورِمَع وزبيد ، وعامر بن شهر على همدان، وعلى صنعاء ابن باذام،وعلى عك والاشعريين الطاهر بن أبى هالة ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعرى ؛ وعلى الجَنَد يَعْلَى بن أبى أمية ، وكان معاذ معلما يتنقل فى عمالة كل عامل باليمن وحضر موت [1] الخ

هنالك كثير غير ما ذكرنا قد وجد فى العصر النبوى ، مما يمكن اعتباره أثراً من آثار الدولة ، ومظهراً من مظاهر الحكومة ، ومخايل السلطنة ، فمن نظر الى ذلك من هذه الجهة ، ساغ له القول بأن

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٤

النبي صلى الله عليه وسلم كان رسول الله تعالى ، وكان ملكا سياسيا أيضاً

(٩) اذا ترجح عند بعض الناظرين اعتبار تلك الأمثلة ، واطمأن الى الحكم بأنه صلى الله عليه وسلم كان رسولا وملكا ، فسوف يعترضه حينئذ بحث آخر جدير بالتفكير . فهل كان تأسيسه صلى الله عليه وسلم المملكة الاسلامية ، وتصرفه فى ذلك الجانب شيئا خارجاً عن حدود رسالته صلى الله عليه وسلم ، أم كان جزءا مما بعثه الله له وأوحى به اليه ؟

فأما أن المملكة النبوية عمل منفصل عن دعوة الاسلام ، وخارج عن حدود الرسالة ، فذلك رأي لا نعرف فى مذاهب المسلمين مايشاكله ، ولا نذكر فى كلامهم ما يدل عليه ، وهو على ذلك رأي صالح لان يذهب اليه ، ولا نرى القول به يكون كفراً ولا الحاداً ، وربما كان محمولا على هذا المذهب ما يراه بعض الفرق الاسلامية من انكار الخلافة فى الاسلام مرة واحدة

ولا يهولنك أن تسمع ان للنبي صلى الله عليه وسلم عملا كهذا خارجاً عن وظيفة الرسالة ، وان ملكه الذى شيده هو من قبيل ذلك العمل الدنيوي الذى لا علاقة له بالرسالة ، فذلك قول إن أنكرته الاذن ، لان التشدق به غير ألوف فى لغة المسلمين ، فقواعد الاسلام ، ومعنى الرسالة ، وروح التشريع ، وتاريخ النبي صلى الله عليه وسلم ، كل ذلك لا يصادم رأيا كهذا ولا يستفظعه . بل ربما وجد ما يصلح له دعامة وسندا ، ولكنه على كل حال رأي نراه بعيداً

(١٠) وأما ان المملكة النبوية جزء من عمل الرسالة متمم لها ، وداخل فيها ، فذلك هو الرأى الذى تتلقاه نفوس المسلمين فيما يظهر

بالرضا ، وهو الذى تشير اليه أساليبهم ، وتؤيده مبادئهم ومذاهبهم ، ومن البيِّن أن ذلك الرأى لا يمكن تعقله الا اذا ثبت أن من عمل الرسالة أن يقوم الرسول ، بعد تبليغ الدعوة الالهية بتنفيذها على وجه عملي ، أي أن الرسول يكون مبلغاً ومنفذا معا ،

(١١) غير أن الذين بحثوا في معنى الرسالة ، ووقفنا على مباحثهم ، أغفلوا دائما أن يعتبروا التنفيذ جزءاً من حقيقة الرسالة ، الا ابن خلدون ، فقد جاء فى كلامه ما يشير الى ان الاسلام دون غيره من الملل الاخرى قد اختص بأنه جمع بين الدعوة الدينية وتنفيذها بالفعل ، وذلك المعنى ظاهر فى عدة مواضع من مقدمته التاريخية ، وقد بينه بنوع من البيان فى الفصل الذى شرح فيه اسم البابا والبطرك فى الملة النصرانية ، واسم الكوهن عند اليهود ، فقال :

« إعلم أن الملة لا بد لها من قائم عند غيبة النبى ، يحملهم على أحكامها وشرائعها ، ويكون كالخليفة فيهم للنبى فيما جاء به من التكاليف . والنوع الانسانى أيضاً ، بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشرى ، لا بد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ، ويَزَعُهم عن مفاسدهم ، بالقهر ، وهو المسمى بالملك ، والملة الاسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعا ، لعموم الدعوة ، وحمل الكافة على دين الاسلام طوعا أو كرهاً ، اتحدت فيها الخلافة والملك ، لتوجه الشوكة من القائمين بها اليهما معا ، وأما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ، ولا الجهاد عندهم مشروعا ، الا فى المدافعة فقط ، فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شىء من سياسة الملك ، لأنهم

غير مكلفين بالتغلب على الأمم الأخرى . وانما هم مطلوبون باقامة دينهم فى خاصة أنفسهم الخ »

فهو كما ترى يقول ، إن الاسلام شرعى تبليغى وتطبيقى ، وأن السلطة الدينية اجتمعت فيه والسلطة السياسية ، دون سائر الاديان .

(١٢) لا نرى لذلك القول دعامة ، ولا نجد له سنداً ، وهو على ذلك ينافى معنى الرسالة ، ولا يتلاءم مع ما تقضى به طبيعة الدعوة الدينية كما عرفت ، وليكن ذلك القول صحيحاً ، فقد بقى مشكل آخر عليهم أن يجدوا له جوابا ، وأن يلتمسوا منه مخرجا ، ذلك هو المشكل الذى بدأنا عنده هذا المبحث فدفعنا الى بحث آخر .

اذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسس دولة سياسية ، أو شرع فى تأسيسها ، فلماذا خلت دولته اذن من كثير من أركان الدولة ودعائم الحكم ؟ ولماذا لم يعرف نظامه فى تعيين القضاة والولاة ؟ ولماذا لم يتحدث الى رعيته فى نظام الملك وفى قواعد الشورى ؟ ولماذا ترك العلماء فى حيرة واضطراب من أمر النظام الحكومى فى زمنه ؟ ولماذا ولماذا ! نريد أن نعرف منشأ ذلك الذى يبدو للناظر كأنه إبهام أو اضطراب أو نقص ، أو ماشئت فسمه ، فى بناء الحكومة أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، وكيف كان ذلك ؟ وما سره ؟

لعل أولئك الذين يصرون على اعتقادهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قام بدعوة الى دين جديد ، والى تأسيس دولة جديدة ، ويصرون

على أن الدولة التى أنشأها النبى صلى الله عليه وسلم كانت توضع أسسها، وتدار شؤونها، وتنظم أمورها، بوحى الله تعالى أحكم الحاكمين، ثم يضطرهم ذلك الى اعتقاد أن نظام الدولة زمن النبى صلى الله عليه وسلم، بلغ غاية الكمال التى تعجز عنها عقول البشر، وترتد دونها أفكارهم، لعل أولئك اذا سئلوا عن سر هذا الذي يبدو نقصا فى أنظمة الحكم، وإبهاما فى قواعده، قد يلتمسون للجواب احدى تلك الخطط التى سنأخذ الآن فى بيانها

(١٣) أما صاحب كتاب تخريج الدلائل السمعية — ويوافقه رفاعة بك — فقد وجد له من ذلك المأزق مخلصا سهلا، فزعم أن الحكومة كانت تشتمل فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم على كل مايلزم للدولة من عمال وأعمال، وأنظمة مضبوطة، وقواعد محدودة، وسنن مفصلة تفصيلا، لا مجال بعده لجديد، ولا زيادة لمستزيد،

وعسى أن لا يكون بك حاجة إلى إعادة هذا القول عليك بعد ماسبق.

(١٤) قد يقول قائل يريد أن يؤيد ذلك المذهب بنوع من التأييد، على طريقة أخرى: إنه لا شىء يمنعنا من أن نعتقد أن نظام الدولة زمن النبى صلى الله عليه وسلم كان متينا ومحكما، وكان مشتملا على جميع أوجه الكمال، التى تلزم لدولة يدبرها رسول من الله، يؤيده الوحى، وتؤازره ملائكة الله، غير أننا لم نصل الى علم التفاصيل الحقيقية، ودقائق ما كانت عليه الحكومة النبوية، من نظام بالغ، وإحكام سابغ،

لأن الرواة قد تركوا نقل ذلك الينا ، أو أنهم نقلوه ، ولكن غاب علمه عنا ، أو لسبب آخر ، [1] « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

(١٥) تلك خطة لا ينبغى أن يرفضها الأول وهلة عقل العلماء . فانه لاحرج على نفوسنا أن يخالطها الشك فى أننا نجهل كثيراً من شؤون التاريخ النبوى ، بل الواقع أننا نجهل منه ومن غيره أكثر مما نعرف

على أهل العلم أن يؤمنوا دائماً بأن كثيراً من الحقائق محجوب عنهم ، وعليهم أن يدأبوا أبداً فى كشف مغيبها ، واستنباط الجديد منها ، ففى ذلك حياة العلم ونماؤه ، غير أن احتمال جهلنا ببعض الحقائق لا ينبغى أن يمنعنا من الوثوق بما علمنا منها ، واعتبارها حقائق علمية ، تبنى عليها الاحكام ، وتقيم المذاهب ، ونبين لها الأسباب ، ونستخلص منها النتائج ، حتى يظهر لنا ما يخالفها ويثبت ثبوتاً علمياً

لذلك نقول إنه من المحتمل حقيقة أن يكون نظام الحكومة النبوية قد خفى علينا خبره ، وقد تكشف لنا الايام أنه كان المثل الأعلى فى الحكم ، ولكن ذلك الاحتمال لا يمنعنا أن نعود — ولما ينكشف لنا بالفعل ما يخالف معلومنا — فنسأل من جديد عن منشأ ذلك الذى عرفنا الى الآن من الإبهام والاضطراب فى نظام الحكومة النبوية ، وعن سره ومعناه

(١٦) هنالك خطة أخرى للجواب عن ذلك السؤال

ذلك أن كثيراً مما نسميه اليوم أركان الحكومة ، وأنظمة الدولة ، وأساس الحكم ، إنما هى اصطلاحات عارضة ، وأوضاع مصنوعة ،

---

(١) سورة الاسراء

وليست هى في الواقع ضرورية لنظام دولة تريد أن تكون دولة البساطة ، وحكومة الفطرة ، التى ترفض كل تكلف ، وكل ما لا حاجة بالفطرة البسيطة اليه

وكل ما تمكن ملاحظته على الدولة النبوية يرجع عند التأمل إلى معنى واحد ، ذلك هو خلوها من تلك المظاهر التى صارت اليوم عند علماء السياسة من أركان الحكومة المدنية ، وهى فى حقيقة الأمر غير واجبة ، ولا يكون الاخلال بها حتما نقصاً فى الحكم ، ولا مظهراً من مظاهر الفوضى والاختلال ، فذلك تأويل ما يلاحظ على الدولة النبوية مما قد يعد اضطراباً

(١٧) كان محمد صلى الله عليه وسلم يحب البساطة ، ويكره التكلف . وعلى البساطة الخالصة التى لا شائبة فيها قامت حياته الخاصة والعامة ، كان يدعو إلى البساطة فى القول والعمل ، كما فى حديثه مع جرير بن عبد الله البجلي [١] « يا جرير إذا قلت فأوجز ، واذا بلغت حاجتك فلا تتكلف »

كان يعاشر الناس من غير تكلف ، ويجري معهم على منهج البساطة ، وقد « روى [٢] أنه صلى الله عليه وسلم كان يمازح أصحابه ... وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كانت فى النبى صلى الله عليه وسلم دعابة » وكان يقول لاصحابه « [٣] إنى أكره أن أتميز عليكم ، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين

---

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٤ المطبعة العلمية (٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٦٢
(٣) السيرة النبوية على هامش السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٦٠

أصحابه » وروى أنه صلى الله عليه وسلم [١] « ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً » وفى حديثه لأبى موسى الاشعرى ومعاذ ، وسبقت روايته » يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا »

كان صلى الله عليه وسلم يكره الرياء والتكلف ، ويقول فى حجة الوداع [٢] « اللهم اجعله حجاً مبروراً ، لا رياء فيه ولا سمعة » وقال الله تعالى مخاطباً له عليه السلام [٣] « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » وكان فيما يبلغ عن شريعة الله تعالى يأمر الناس بالقواعد البسيطة ، وينهاهم عن التكلف ، وينادیهم « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » و « ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » [٤] و « ما جعل عليكم فى الدين من حرج »

ولا تجد فيما جاء به من الشرائع حكما يرجع إلا إلى المبادىء الامية الساذجة . فلم يكلفهم فى أوقات الصلاة أن يحسبوا درج الشمس ، ولا مطالع النجوم ، بل جعل مناط ذلك ما يحس به كل انسان من حركة الشمس المشاهدة فى السماء ، وجعل الصوم والحج ومناسك العبادة متصلة بحركة القمر ، وحركة القمر محسوسة لا تحتاج الى حساب ولا رصد ، ولم يكلفنا فى الصوم أن نحسب لهلال رمضان ، بل جعل ذلك منوطاً برؤية الهلال رؤية بسيطة لا تكلف فيها ، وجاء فى ذلك الحديث [٥] « نحن أمة أمية الخ » وحديث [٦] صوموا لرؤيته الخ ، ولم يكلفنا حساب اليوم بالساعات

---

(١) منه ص ٢٧٢ (٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٨٤ (٣) سورة ص (٤) سور الحج
(٥) فتح البارى ج ٤ ص ٨٩ المطبعة الخيرية ، برواية انا ، بدل نحن (٦) شرح العسقلانى للبخارى ج ٤ ص ٨٨ المطبعة الخيرية

والدقائق، بل ربطه كذلك بالشيء المحسوس، الذي لا خفاء فيه « وَكُلُوا[1] واشْرَبُوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ من الخَيْطِ الاسودِ من الفجر ثم أتِمُّوا الصيامَ إلى الليلِ »

كان صلى الله عليه وسلم أمياً ورسولا إلى الاميين ، فما كان يخرج في شيء من حياته الخاصة والعامة ولا في شريعته عن أصول الأمية ، ولا عن مقتضيات السذاجة والفطرة السليمة التي فطر اللهُ الناسَ عليها ، فلعل ذلك الذي رأينا في نظام الحكم أيام النبي صلى الله عليه وسلم هو النظام الذي تقضي به البساطة الفطرية . ولا ريب في أن كثيراً من نظم الحكم في الوقت الحاضر إنما هي أوضاع وتكلفات ، وزخارف طال بنا عهدها فألفناها ، حتى تخيلناها من أركان الحكم وأصول النظام ، وهي إذا تأملت ليست من ذلك في شيء ،

إن هذا الذي يبدوا لنا إبهاماً أو اضطراباً أو نقصاً في نظام الحكومة النبوية لم يكن إلا البساطة بعينها ، والفطرة التي لا عيب فيها

(١٨) لو كنا نريد أن نختار لنا طريقاً من بين تلك الطرق التي قصصنا عليك ، لكان ذلك الرأي أدنى الى اختيارنا ، فانه بالدين أشبه . لكنا لا نستطيع أن نتخذه لنا رأيا ، لأنك إن تأملت وجدته غير وجيه ولا صحيح

حق أن كثيراً من أنظمة الحكومات الحديثة أوضاع وتكلفات ، وان فيها ما لا يدعو اليه طبع سليم ، ولا ترضاه فطرة صحيحة ، ولكن من الاكيد الذي لا يقبل شكا أيضاً أن في كثير مما استحدث في أنظمة الحكم ما ليس متكلفاً ولا مصنوعا ، ولا هو مما ينافي الذوق الفطري

(١) سورة البقرة

البسيط ، وهو مع ذلك ضرورى ونافع ، ولا ينبغي لحكومة ذات مدنية وعمران أن تهمل الأخذ به

وهل من سلامة الفطرة وبساطة الطبع مثلا أن لا يكون لدولة من الدول ميزانية تقيد إيرادها ومصروفاتها ، أو أن لا يكون لها دواوين تضبط مختلف شؤونها الداخلية والخارجية ، إلى غير ذلك — وإنه لكثير — مما لم يوجد منه شئ فى أيام النبوة ، ولا أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم

إنه ليكون تعسفاً غير مقبول أن يعلل ذلك الذى يبدو من نقص المظاهر الحكومية زمن النبى صلى الله عليه وسلم بأن منشأه سلامة الفطرة ، ومجانبة التكلف .

فنلتمس وجهاً آخر لحل ذلك الاشكال

الباب الثالث

رسالة لا حكم ، ودين لا دولة

كان صلعم رسولا غير ملك — زعامة الرسالة وزعامة الملك — كمال الرسل — كماله صلى الله عليه وسلم الخاص به — تحرير المراد بكلمات ملك وحكومة الخ — القرآن ينفي أنه (صلعم) كان هذا كله — السنة كذلك — طبيعة الاسلام تأبى ذلك ايضاً — تأويل بعض ما يشبه ان يكون مظهراً من مظاهر الدولة — خاتمة البحث

(١) رأيت إذن أن هنالك عقبات لا يسهل أن يتخطاها أولئك الذين يريدون أن يذهب بهم الرأى إلى اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع إلى صفة الرسالة انه كان ملكا سياسياً ، ومؤسساً لدولة سياسية. رأيت انهم كلما حاولوا أن يقوموا من عثرة لقيتهم عثرات ، وكلما أرادوا الخلاص من ذلك المشكل عاد ذلك المشكل عليهم جذعاً .

لم يبق أمامك بعد الذى سبق إلا مذهب واحد ، وعسى أن تجده منهجاً واضحاً ، لاتخشى فيه عثرات ، ولا تلقى عقبات ، ولا تضل بك شعابه ، ولا يغمرك ترابه ، مأمون الغوائل ، خالياً من المشاكل . ذلك هو القول بأن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة الدين ، لا تشوبها نزعة ملك ، ولا دعوة لدولة ، وانه لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ملك ولا حكومة ، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يقم

بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها ما كان الا رسولا كاخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ، ولا داعياً الى ملك .

قول غير معروف ، وربما استكرهه سمع المسلم ، بيد أن له حظا كبيراً من النظر وقوة الدليل .

(٢) وقبل أن نأخذ بك فى بيان ذلك ، يجب أن نحذرك من خطأ قد يتعرض له الناظر اذا هو لم يحسن النظر ، ولم يكن من أمره على حذر ، ذلك أن الرسالة لذاتها تستلزم للرسول نوعا من الزعامة فى قومه ، والسلطان عليهم ، ولكن ذلك ليس فى شىء من زعامة الملوك وسلطانهم على رعيتهم . فلا تخلط بين زعامة الرسالة وزعامة الملك . ولاحظ أن بينهما خلافا يوشك أن يكون تباينا

وقد رأيت أن زعامة موسى وعيسى فى اتباعهما لم تكن زعامة ملوكية ، ولا كانت كذلك زعامة اكثر المرسلين

(٥) إن طبيعة الدعوة الدينية الصادقة تستلزم لصاحبها نوعا من الكمال الحسى أولاً ، فلا يكون فى تركيب جسمه ولا فى حواسه ومشاعره نقص ، ولاشىء يدعو الى النفور . ولا بد له - لانه زعيم - من هيبة تملأ النفوس من خشيته ، وجاذبية تعطف الرجال والنساء الى محبته . ثم لا بد له أيضا من الكمال الروحى ، لذلك ، ولما يفيض عليه ، ضرورة اتصاله بالملأ الاعلى .

والرسالة تستلزم لصاحبها شيئا كثيراً من التميز الاجتماعى بين

قومه ، كما ورد :[١] أنه لا يبعث الله نبياً الا فى عز من قومه ، ومنعة من عشيرته

والرسالة تستلزم لصاحبها نوعا من القوة التى تُعده لأن يكون نافذ القول ، مجاب الدعوة ، فان الله جل شأنه لا يتخذ الرسالة عبثاً ، ولا يبعث بالحق رسولا إلا وقد أراد لدعوته أن تتم ، وأن ترسخ أصولها فى لوح العالم المحفوظ ، وأن تمتزج بحقائق هذا العالم امتزاجا«[٢] وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ لِيُطاعَ بإِذْنِ الله » وحاش لله ، لا يرسل الله دعوة الحق لتضيع ، ولا يبعث رسولا من عنده ليرتد مخزياً «[٣] ولقد اسْتُهْزِئَ برُسُلٍ مِن قَبلِك فحاقَ بالذين سَخِروا منهم ما كانوا به يَسْتَهْزِئون ، قُل سِيرُوا فى الأَرض ثمَّ انظُروا كيْفَ كانَ عاقبةُ المكذِّبين» «[٤] ويُرِيدُ اللهُ أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماتهِ ويَقطعَ دابرَ الكافرينَ ليُحِقَّ الحقَّ ويبطل الباطلَ ولو كره المجرمون »[٥] « ولقد سَبَقتْ كلمتُنا لعبادِنا المرسلين أنهمْ لهمُ المنصورُونَ وإنَّ جُندَنا لَهُمُ الغالبونَ » «[٦] إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمنوا فى الحياةِ الدُّنْيا ، ويومَ يَقومُ الأَشهادُ ، يومَ لا ينفَعُ الظالمينَ مَعْذِرَتُهم ولَهمُ اللَّعنةُ ولهم سُوءُ الدَّارِ »

إن مقام الرسالة يقتضى لصاحبه سلطاناً أوسع مما يكون بين الحاكم والمحكومين ، بل وأوسع مما يكون بين الاب وأبنائه

---

(١) رواه الشيخان بلفظ : كذلك الرسل تبعث فى احساب قومها... من حديث طويل ، راجع تيسير الوصول الى الجامع الاصول ج ٣ ص ٣٢٠ (٢) سورة النساء (٣) سورة الانعام (٤) سورة الانفال (٥) سورة الصافات (٦) سورة المؤمن

قد يتناول الرسول من سياسة الأمة مثل ما يتناول الملوك ، ولكن للرسول وحده وظيفة لا شريك له فيها . من وظيفته أيضاً أن يتصل بالارواح التى فى الأجساد ، وينزع الحجب ليطلع على القلوب التى فى الصدور . له بل عليه أن يشق عن قلوب أتباعه ، ليصل الى مجامع الحب والضغينة ، ومنابت الحسنة والسيئة . ومجارى الخواطر ، ومكامن الوساوس ، ومنابع النيات ، ومستودع الاخلاق . له عمل ظاهرى فى سياسة العامة ، وله أيضا عمل خفى فى تدبير الصلة التى تجمع بين الشريك والشريك ، والحليف والحليف ، والمولى وعبده ، والوالد وولده ، وفى تدبير تلك الروابط التى لا يطلع عليها الا الخليل وحليلته . له رعاية الظاهر والباطن ، وتدبير أمور الجسم والروح ، وعلاقاتنا الارضية والسماوية . له سياسة الدنيا والآخرة .

الرسالة تقتضى لصاحبها ، وهى كما ترى ، وفوق ما ترى ، حق الاتصال بكل نفس اتصال رعاية وتدبير ، وحق التصريف لكل قلب تصريفاً غير محدود

(٤) ذلك ، ولاحظ أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد اختصت رسالته بكثير مما لم يكن لغيره من المرسلين . فقد جاء صلى الله عليه وسلم بدعوة اختاره الله تعالى لان يدعو اليها الناس كلهم أجمعين ، وقدر له أن يبلغها كاملة ، وأن يقوم عليها حتى يكمل الدين ، وتتم النعمة ، وحتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . تلك الرسالة توجب لصاحبها من الكمال أقصى ما تسمو اليه الطبيعة البشرية ، ومن القوة النفسية

منتهى ما قدر الله لرسله المصطفين الأخيار ، ومن تأييد الله ما يتناسب مع تلك الدعوة الكبيرة العامة

فذلك قوله تعالى « [١] وكانَ فَضلُ اللهِ عليكَ عظيماً » وقوله تعالى « [٢] فإنَّكَ بأعيُنِنَا » وفى الحديث « [٣] والله لايخزيك الله أبدا » [٤] أنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر »

من أجل ذلك كان سلطان النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى رسالته سلطاناً عاماً ، وأمره فى المسلمين مطاعاً ، وحكمه شاملا ، فلا شيء مما تمتد اليه يد الحكم الا وقد شمله سلطان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا نوع مما يتصور من الرياسة والسلطان الا وهو داخل تحت ولاية النبي صلى الله عليه وسلم على المؤمنين

واذا كان العقل يجوز أن تتفاوت درجات السلطان الذى يكون الرسول على أمته ، فقد رأيت ان محمداً صلى الله عليه وسلم أحق الرسل عليهم السلام بأن يكون له على أمته أقصى ما يمكن من السلطان ونفوذ القول . قوة النبوة ، وسلطان الرسالة ، ونفوذ الدعوة الصادقة قدّر الله تعالى أن تعلو على دعوة الباطل ، وأن تمكث فى الارض .

ذلك سلطان ترسله السماء من عند الله تعالى على من تنزل عليه ملائكة السماء بوحى الله تعالى . تلك قوة قدسية يختص بها عباد الله المرسلون ، ليست فى شيء من معنى الملوكية ، ولا تشابهها قوة الملوك ، ولا يدانيها سلطان السلاطين .

---

(١) سورة النساء (٢) سورة الطور (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها في بدء الوحي . أخرجه الشيخان ، (٤) من حديث لانس رواه الترمذى

تلك زعامة الدعوة الصادقة الى الله وابلاغ رسالته ، لا زعامة الملك .

انها رسالة ودين ، وحكم النبوة لا حكم السلاطين .

ونعود ثانياً فنحذرك من أن تخلط بين الحكمين ، وأن يلتبس عليك أمر الولايتين ، ولاية الرسول من حيث هو رسول ، وولاية الملوك والامراء .

ولاية الرسول على قومه ولاية روحية ، منشؤها ايمان القلب . وخضوعه خضوعاً صادقاً تاماً يتبعه خضوع الجسم ، وولاية الحاكم ولاية مادية ، تعتمد اخضاع الجسم من غير أن يكون لها بالقلوب اتصال . تلك ولاية هداية الى الله وارشاد اليه ، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة وعمارة الأرض . تلك الدين ، وهذه للدنيا . تلك لله ، وهذه للناس . تلك زعامة دينية ، وهذه زعامة سياسية ، ويا بُعد ما بين السياسة والدين .

(٥) نريد بعد ذلك أن نلفتك الى شيء آخر . فان ثمت كلمات تستعمل أحياناً استعمال المترادفات ، وتستعمل أحياناً استعمال المتغايرات ، وينشأ عن ذلك في بعض الأحوال مشاحّة واختلاف في النظر ، واضطراب في الحكم . فمن ذلك كلمات ، ملك ، وسلطان ، وحاكم ، وأمير ، وخليفة ، ودولة ، ومملكة ، وحكومة ، وخلافة ، الخ .

ونحن هنا اذا سألنا هل كان النبي صلى الله عليه وسلم ملكا أم لا ، فاننا نريد أن نسأل ، هل كان له صلى الله عليه وسلم صفة غير صفة الرسالة . بها يصح أن يقال انه أسس فعلا ، أو شرع في تأسيس وحدة سياسية أم لا ؟ فالملِك في استعمالنا هنا ، ولا حرج إن سميته خليفة أو سلطاناً أو اميراً ، أو ما شئت

فسمه . معناه الحاكم على أمة ذات وحدة سياسية ومدنية ، ونريد بالحكومة والدولة والسلطنة والمملكة ما يريد علماء السياسة بكلمات kingdom أو state أو government أو ما أشبه ذلك

نحن لا نشك فى أن الاسلام وحدة دينية ، والمسلمين من حيث هم ، جماعة واحدة ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا الى تلك الوحدة ، وأتمها بالفعل قبل وفاته ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان على رأس هذه الوحدة الدينية ، إمامها الأوحد ، ومدبرها الفذ ، وسيدها الذى لا يراجع له أمر ، ولا يخالف له قول . وفى سبيل هذه الوحدة الاسلامية ناضل عليه السلام بلسانه وسنانه ، وجاءه نصر الله والفتح ، وأيدته ملائكة الله وقوته ، حتى بلغ رسالته ، وأدى أمانته . وكان له صلى الله عليه وسلم من السلطان على أمته ما لم يكن لملك قبله ولا بعده[1] « النبيُّ أَوْلَى بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهم »[2] « وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة اذا قضَى اللهُ ورسولُهُ أمْرًا أن يكونَ لَهم الخِيَرَةُ مِنْ أمرِهِمْ ، ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَهُ فقدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا »

من كان يريد أن يسمى تلك الوحدة الدينية دولة ، ويدعو سلطان النبي صلى الله عليه وسلم ذلك السلطان النبوى المطلق ، ملكا أو خلافة ، والنبي عليه السلام ملكا أو خليفة أو سلطانا الخ فهو فى حل من أن يفعل ، فان هى الا أسماء ، لا ينبغى الوقوف عندها ، وانما المهم كما قلنا هو المعنى ، وقد حددناه لك تحديداً .

---

(١) سورة الاحزاب (٢) سورة الاحزاب

المهم هو أن نعرف هل كانت زعامة النبي صلى الله عليه وسلم فى قومه زعامة رسالة ، أم زعامة ملك ؟ وهل كانت مظاهر الولاية التى نراها أحيانا فى سيرة النبي عليه السلام مظاهر دولة سياسية ، أم مظاهر رياسة دينية ؟ وهل كانت تلك الوحدة التى قام على رأسها النبي عليه السلام وحدة حكومة ودولة ، أم وحدة دينية صرفة لا سياسية ؟ وأخيراً هل كان صلى الله عليه وسلم رسولا فقط أم ملكا ورسولا ؟

« ٦ » ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له شأن فى الملك السياسى ، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان

«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقد أطاعَ اللهَ ،وَمَنْ تَوَلَّى فما أرسلناكَ عَلَيْهِمْ حفيظاً » (١) « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق ، قُلْ لستُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ، لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » (٢) « إتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، لاإلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا،وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» (٣) «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (٤) « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ،وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٥) « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً » (٦) « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً » (٧)

---

(١) سورة النساء (٢) الانعام (٣) الانعام (٤) يونس (٥) سورة يونس (٦) سورة الاسراء (٧) سورة الفرقان

« إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » (١) « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » (٢) « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » (٣) « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ » (٤)

القرآن كما ترى يمنع صريحاً أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم ، حفيظاً على الناس ، ولا وكيلا ، ولا جباراً (٥) ولا مسيطرا ، وان يكون له حق اكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين : ومن لم يكن حفيظا ولا مسيطرا فليس بملك ، لان من لوازم الملك السيطرة العامة والجبروت ، سلطاناً غير محدود .

ومن لم يكن وكيلا على الامة فليس بملك أيضاً

وقال تعالى « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتَمَ النبيين وكانَ اللهُ بكلِّ شيءٍ عليماً (٦) »

القرآن صريح فى أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن له من الحق على أمته غير حق الرسالة . ولو كان صلى الله عليه وسلم ملكا لكان له

---

(١) سورة الزمر (٢) سورة الشورى (٣) سورة ق (٤) سورة الغاشية

(٥) يخيل الى انى قرأت فى كتاب . لم استطع الآن ان اتذكره . ان الجبار اسم للملك عند بعض العرب . وعليه قوله تعالى (وما أنت عليهم بجبار) ولكن الذى وجدته فيما بين يدى من كتب اللغة ان الملك يسمى جبرا . وقالوا طالع الجبار . وهو الجوزاء . لانها على صورة ملك متوج على كرسى . وقالوا هو كذا ذراعا بذراع الجبار . أى بذراع الملك . والله أعلم .

(٦) سورة الاحزاب

على أمته حق الملك أيضاً . وأن للملك حقاً غير حق الرسالة ، وفضلاً غير فضلها ، وأثراً غير أثرها « قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ ماشَاءَ اللهُ. وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»(١) « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ ما يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أو جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ . إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ »(٢) « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »(٣) « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً »(٤) « قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ »(٥) « إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ »(٦) « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ »(٧)

القرآن كما رأيت صريح فى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لم يكن إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، ثم هو بعد ذلك صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن من عمله شىء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس ، وأنه لم يكلف شيئاً غير ذلك البلاغ ، وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به ، ولا أن يحملهم عليه « فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

---

(١) سورة الاعراف (٢) سورة هود (٣) سورة الرعد (٤) سورة الكهف
(٥) سورة الحج (٦) سورة ص (٧) سورة حم السجدة — أو فصلت

الْبَلاَغُ الْمُبِينُ » (١) « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاَغُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » (٢) « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ » (٣) « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » (٤) « وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » (٥) « فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ » (٦) « وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٧) « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ » (٨) « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » (٩) « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » (١٠) « طه . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى » (١١) « وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ » (١٢) « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » (١٣) « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ » (١٤) « وَإِنْ يُكَذِّبُوا فَقَدْ

---

(١) سورة المائدة (٢) المائدة (٣) سورة الاعراف (٤) سورة يونس (٥) سورة الرعد (٦) سورة النحل (٧) النحل (٨) النحل (٩) سورة الاسراء (١) سورة مريم (١١) سورة طه (١٢) سورة النور (١٣) سورة الفرقان (١٤) سورة النمل

كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ » (١)
« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَعِيّاً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجاً مُنِيراً » (٢) « وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ » (٣) « ما بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ
هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ » (٤) « إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ
إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ » (٥)
« وَما عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ » (٦) « قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ
الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » (٧) « قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما
يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ أَنْ أَتَّبِعُ إِلاّ ما يُوحَى إِلَيَّ ، وَما أَنَا إِلاّ نَذِيرٌ مُبِينٌ » (٨)
« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً » (٩) « وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ » (١٠) « قُلْ إِنَّمَا
الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ » (١١) « قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلا
أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً . قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً قُلْ إِنِّي لَنْ
يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلاّ بَلاغاً مِنَ اللهِ
وَرِسَالاتِهِ » (١٢)

---

(١) سورة العنكبوت (٢) سورة الاحزاب (٣) سورة سبأ (٤) سورة سبأ
(٥) سورة فاطر (٦) سورة يس (٧) سورة ص (٨) سورة الاحقاف
(٩) سورة الفتح (١٠) سورة المائدة (١١) سورة الملك (١٢) سورة الجن

(٧) اذا نحن تجاوزنا كتاب الله تعالى الى سنة النبى عليه الصلاة والسلام ، وجدنا الأمر فيها أصرح ، والحجة أقطع

روى صاحب السيرة [١] النبوية أن رجلاً جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، لحاجة يذكرها ، فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : هون عليك فانى لست بملك ولا جبار ، وانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة . . . وقد جاء فى الحديث أنه لما خير على لسان اسرافيل بين أن يكون نبياً ملكا ، أو نبياً عبداً ، نظر عليه الصلاة والسلام الى جبريل ، عليه السلام ، كالمستشير له ، فنظر جبريل الى الارض ، يشير الى التواضع ، وفى رواية فأشار إليه جبريل أن تواضع ، فقلت نبياً عبداً . اهـ

فذلك صريح أيضاً فى أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ملكا ، ولم يطلب الملك ، ولا توجهت نفسه عليه السلام اليه

التمس بين دفتى المصحف الكريم أثراً ظاهراً أو خفياً لما يريدون أن يعتقدوا من صفة سياسية للدين الاسلامى ، ثم التمس ذلك الأثر مبلغ جهدك بين أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم . تلك منابع الدين الصافية متناول يديك ، وعلى كثب منك ، فالتمس منها دليلا أو شبه دليل ، فانك لن تجد عليها برهانا ، الا ظناً ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً

(٨) الاسلام دعوة دينية الى الله تعالى ، ومذهب من مذاهب الاصلاح لهذا النوع البشرى وهدايته الى ما يدنيه من الله جل شأنه ، ويفتح له سبيل السعادة الأبدية التى أعدها الله لعباده الصالحين .

---

(١) السيرة النبوية لأحمد بن زيني دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ من كتاب اكتفاء القنوع

هو وحدة دينيـة أراد الله جل شأنه أن يربط بها البشر أجمعين ، وأن يحيط بها أقطار الارض كلها .

تلك دعوة قدسية طاهرة لهذا العالم ، أحمره وأسوده ، أن يعتصموا بحبل الله الواحد ، وأن يكونوا أمة واحدة ، يعبدون الهاً واحـداً ، ويكونون في عبادته اخواناً . تلك دعوة الى المثل الاعلى لسلام هذا العالم ، وأخذه الى ما يليق به من الكمال ، والى ما أعد له من السعادة ، تلك رحمة السماء بالارض ، وفضل الله على العالمين .

دعوة العـالم كله الى التآخى فى الدين دعوة معقولة ، وفى طبيعة البشر استعداد لتحقيقها .

بلى . ولقد وعد الله جل شأنه لهـذه الدعوة أن تتم ، فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ (١) ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (٢) « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » (٣) « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

---

(١) سورة ابراهيم (٢) سورة النور (٣) سورة الفتح

رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » (١)

معقول أن يؤخذ العالم كله بدين واحد، وأن تنتظم البشرية كلها وحدة دينية ، فاما أخذ العالم كله بحكومة واحدة ، وجمعه تحت وحدة سياسية مشتركة ، فذلك مما يوشك أن يكون خارجاً عن الطبيعة البشرية ، ولا تتعلق به ارادة الله

على ان ذلك انما هو غرض من الاغراض الدنيوية ، التى خلّى الله سبحانه وتعالى بينها وبين عقولنا . وترك الناس أحراراً فى تدبيرها على ما تهديهم اليه عقولهم ، وعلومهم ، ومصالحهم ، واهواؤهم ، ونزعاتهم ، . حكمة لله فى ذلك بالغة ليبقى الناس مختلفين ، « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » (٢)

وليبقى بين الناس ذلك التدافع الذى أراده الله ليتم العمران « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » (٣)

وحتى يبلغ الكتاب أجله ، ويتم أمر الله

ذلك من الاغراض الدنيوية التى أنكر النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون له فيها حكم أو تدبير ، فقال عليه السلام أنتم أعلم بشؤون دنياكم

ذلك من أغراض الدنيا ، والدنيا من أولها لآخرها ، وجميع ما فيها

---

(١) سورة الصف (٢) سورة هود (٣) سورة البقرة

من اغراض وغايات ، أهون عند الله تعالى من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول ، وحبانا من عواطف وشهوات ، وعلمنا من أسماء ومسميات ، هى أهون عند الله تعالى من أن يبعث لها رسولا ، وأهون عند رسل الله تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها .

(٩) لا يريبنّك هذا الذى ترى أحياناً فى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فيبدو لك كانه عمل حكومي ، ومظهر الملك والدولة ، فانك اذا تأملت لم تجده كذلك ، بل هو لم يكن الا وسيلة من الوسائل التى كان عليه صلى الله عليه وسلم أن يلجأ اليها ، تثبيتاً للدين ، وتأييداً للدعوة

وليس عجيباً أن يكون الجهاد وسيلة من تلكم الوسائل . هو وسيلة عنيفة وقاسية ، ولكن ما يدريك ، فلعل الشر ضرورى للخير فى بعض الاحيان ، وربما وجب التخريب ليتم العمران .

« قالوا كان لا يخلو من غلب « بالتحريك » ، قلنا تلك سنة الله فى الخلق ، لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغي ، قائمة فى هذا العالم الى أن يقضي الله بقضائه فيه

اذا ساق الله ربيعاً الى أرض جدبة ، ليحيي ميتها ، وينقع من غلتها وينمي الخصب فيها ، أفينقص من قدره ان أتى فى طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به »[1]

قالوا غزوت ! ورسل الله مابعثت لقتل نفس ولا جاءت لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسفة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٢٢ — ١٢٣

لما أتى لك عفواً كل ذى حسب تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم
علمتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذمم [1]

(١٠) ترى من هذا انه ليس القرآن هو وحده الذى يمنعنا من اعتقاد ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو مع رسالته الدينيه الى دولة سياسية . وليست السنة هى وحدها التى تمنعنا من ذلك ، ولكن مع الكتاب والسنة حكم العقل وما يقضي به معنى الرسالة وطبيعتها

انما كانت ولاية محمد صلى الله عليه وسلم على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم .

هيهات هيهات ، لم يكن ثمت حكومة ، ولا دولة ، ولا شيء من نزعات السياسة ، ولا اغراض الملوك والامراء

لعلك الآن قد اهتديت إلى ما كنت تسأل عنه قبلا ، من خلو العصر النبوى من مظاهر الحكم واغراض الدولة،وعرفت كيف لم يكن هنالك ترتيب حكومي ، ولم يكن ثمت ولاة ولا قضاة ولا ديوان الخ . ولعل ظلام تلك الحيرة التى صادفتك قد استحال نوراً . وصارت النار عليك برداً وسلاما

---

(١) لاحمد بك شوقى